المقامة الكبكجية

تصنيف

مستفز الحريري والهمذاني

أمين الريحاني

حدثني العُشّة قال :

كنت في مكتبة المدينة، اتطفل في الكتب الثمينة ، فمرّت على سفر من الاسفار ، مغلّف بالغبار هو « بلوغ الادب ، في الضحك والطرب » . وقد كنت في غمّ وا كتئاب ، فاستبشرت بذلك الكتاب ، ورحت امنّي النفس بالكنز المكنون ، في الفكاهة والمجون ، وانا اقول لها : كفالك الكدح في الورق المصقول ، من مؤلفات كبار العقول . هذا كتاب في الضحك فابشري ، ولا تستصغريه ولا تستكبري ؛ فالضحك من نِعم الحياة ، لسائر المخلوقات ، حتى للعُثّ والمكروبات

ثم زيّنت حنجرتي ، وشحذت ناقرتي ، ودخلت الكتاب ، من اون الابواب ، تنقرت منهُ بضع صفحات ، في الاصول والغايات ، وكنت كمن ينشد ابا الصنّاحة في جنازة . فخرجت مسرعاً الى الفراء استنشق نقي الهواء

بعد ذلك استشعرت الامل ، وعدت الى العمل ، فدخلت الكتاب العويص المعاني ، من الباب الوسطاني ، وشرعت اقرم فيهِ ، قَرْمَ الشريه بل قرمَ الفقيه ، فتقذت من خلال غباره الى حواشي اسراره ، وتمثرت هناك بمدَرهِ وحجاره ، بل سقطت بين فصليه ، كمن أُغمي عليهِ ، فبادرتْ اليَّ الشقيقات ، بالمراوح والمنشات ، فأنقذتني من شر النكبات

ثم شمرت بنشاط تجدد ، وعزم تسدد ، فهجمت هجمات متوالية ، على برج انعم العاية ، بل طفقت احفر تحت اساسها ، بكاية بعبرها وقرطاسها ، فهدرتْ وهي تهبط عليَّ ، فصحت : اليَّ اليَّ ! ان في هذه الابراج جنًّا يجنجنون ، ويضحكون ويقهقهون

وهناك بين الردم رأيت سراجاً ضئيل النور ، وسمعت صوتاً كصوت الناعور ، فاذا بجنّي من اقزام الجن ، يتمطى ويئن ، بدا صغيراً وغدا في لحظة كبيراً خطيرا . وجهه كالسنكسار[1] المفتوح ، والاحرف فيه كالفروح ، متنه صغير الحد ، وهامشه بياض يمتد ، وفي رأسي الصفحتين عينان مستطيلتان ، هما العنوان . وفي اسفلهما تتزاحم وتلتف الحواشي ، كالشعر في لحية النجاني . ومن وسطه تبرز الاقلام ، كأنها السهام . يداه محبرتان ، وساقاه محدلتان طويلتان ، تحتها رجلان ستديرتان ، كأنهما دولابان . فكان يدرج في مشيه كالدولاب ، وكلما تكلم سقط من فيه الكتاب تلو الكتاب

وقف هذا المخلوق العجيب في نور السراج الكئيب ، ثم صاح بي ، وهو يدرج من صوبي : كفاك فضولاً وافتراء ، يا ابنة الصوف والفيراء !

فتشجعت وقلت : احسنت احسنت ، ومن انت ؟

فقال ، وهو ينفخ كريح الشمال : انا كَبْكَجُ رب الكتابة والكاتب ، وحامي الكتب والمكاتب . احميها للطالب والسالك ، واحفظها من المهالك ، ومن غوائل امثالك ، ولكي رأيتك للعلم طالبة ، وبالتفقه راغبة ، فجئت اعينك لبلوغ الادب ، في علم الضحك والطرب . فاعلمي ، وُقيت شر العيون ، ان الذين لا يضحكون ، في ما يكتبون ، هم للزمان ، البواصر والآذان . فلا عجب اذا كان العلماء ، للضحك اعداء . فان حياة الانسان ، لأشجان كلها واحزان . فهل يضحك المنكوب والمحزون ، وهل في التطريب ما يطرب المظلوم والمغبون ؟ أولم يقل الفيلسوف الشهير ، مشرّح الناير ، ان الضحك دليل على ضعف العقل والتفكير ؟ أولم يقل العالم بترهات الانام ، الاستاذ ابو كلام : كلما تغلغلت في اسرار الحياة ، بعدت عن الضحك والمضحكات ؟ أو لم يقل احد الاخصائيين ، بالجنون والمجانين . . . .

(١) كتاب ضخم كبير في تراجم الصالحين واعمالهم يقرأ في الكنائس

قالت العُشّة : وبين كان كَبْكَجٌ يخطب خطبتهُ ، ويعزز بالادلة حجتهُ ، احسست بشيء يضغط عليَّ ، عند يمدّ رِوَي ، فانسللت من حضرة ذلك الفول ، وانا اقول : ما اثقل الحكماء ، وما ابلد الحكماء ، اولئك الذين لا يرون في الحياة ، غير الدود والحيّات . فقد تشدقت في العلوم ، ما يكشف الصوم ، فاذا بالسفر الجليل ، كالحمل الثقيل ، على قلب العليل

فقلت ، وما أطلقت : أفلا يضحكك من لا يضحكون ، وهم في خرائب الضحك ينقبون ؟ أوَلا ترين النكتة في النقاب ، الكثير الاثقاب ؟

فتبسمت تلك الوادعة ، وقالت متواضعة : مثل هذا التفكير . هو دون عقلي الصغير . ولكني مضيت في الامر ، اشد في الكتب الضّاحكة والزمر . فلقيت الكتاب ، الذي يضحك حتى اليوم في الغاب ، ويطرب حتى الغراب . والغريب في عنوانه ، انهُ لا ينبيء بشيء من بيانه ، وهذيانه ، هو « فصل الخطاب ، في علم الاكتئاب » . وأني اشهد بكبكج الدسيم ، انهُ كتاب كريم ، يلقيك في بحر من الحبور ، ويرفعك الى سماء الطرب والسرور ، فينسيك كل هم ، ويجدد فيك حتى البشرة والدم

ولقد طربت بآياته ، في اول صفحة من صفحاته ، وفيها ان الاكتئاب ، هو رأس الاسباب ، في بلاء الشيوخ والشباب . وفي غيرها الحديث الشريف ، والقول الطريف . فقد رُوي عمن كان مثال الورع والوداعة : « روّحوا القلوب ساعةً بعد ساعة » . وقال ابن اسحق لمن تزوّجوا ، وبوزر الوقار رزحوا : « لقد طرب الصالحون وفرحوا » . وفي الصفحة الاخيرة ، هذه الدرّة الصغيرة : « الوجه العبوس ، بدهن الضبّ مغموس »

بعد هذا الخطاب ، عادت العُشّة الى الكتاب ، تقضم في صفحاته ، وتتلمظ بطيباته ، وهي تحسب الحياة كل الحياة ، ساعةً من اللذات . وبين هي في ذلك النعيم ، ظهر كَبْكَجٌ الظليم ، فصاح بها قائلاً : أتحتقرينني ، وتمرين من ظل عرنيني ! ألا ومن يرى الاقلام ، وركّب الالفاظ والكلام ، سأسحقنّك سحق الكراويه ، يا ابنة الطافس الغاويه !

ثم تناول بطرفي الباهم والسّابه ، كتاب الغم والكآبه ، ونفخ فيهِ نفخةً صفرت ودوت ، فطارت العُشّة وهوت ، فنظر اليها وهي امامه ، ثم درج عليها وفي فمه ابتسامه ، وتوارى وهو يقول : من عاش قليلاً ، كمن عاش طويلاً . وفي بواكر اللذات ، تُحمَد النهايات

الفريكة — لبنان